الثورة الجزائرية

تاليف احمد الخطيب

٢٥٦ صفحة من الحجم الكبير ـ نشر دار العلم للملايين

*

ان اول ما اجدني مدفوعا الى قوله هنا هو ان مطالعة هذا الكتاب ضرورة من الضرورات القصوى مفروضة على كل رجل عربي يريد ان يبني شعوره القومي على ايمان حقيقي يكون الدعامة الثابتة اللازمة لهذا الشعور . ومثل هذا الايمان لا ينشأ ولا يقوى الا اذا قام على عنصر اساسي هو الاقتناع بقيمة الامة . وهذا الكتاب الذي يتناول تاريخ الجزائر الحرة منذ القديم حتى يومنا هذا بالسرد والشرح والتحليل والمناقشة ، يعطي القارىء صورة واضحة سائغة عن حقيقة شعب الجزائر وكفاحه البطولي عبر العصور تصل بروعتها الى حد انتزاع الاعجاب والاكبار ، ويقدم للعرب ادلة وشواهد ملموسة ساطعة على قيمة امتهم وعظمتها من خلال قيمة شعب الجزائر وعظمته . وليس ما نسمعه اليوم عن الثورة الجزائرية الراهنة يغني عن الاطلاع على تاريخ الجهاد العربي في الجزائر ووقائعه السالفة الخالدة ، ولعل شعب الجزائر قد بذل من العرق والدم والدموع اكثر مما بذل اي جزء اخر من الامة العربية ، وفي هذا يكمن مظهر فريد من مظاهر البطولة ، بحيث يفصح ابلغ الافصاح عن حقيقة قيمة هذه الامة .

ولست اجد لتقديم الكتاب خيرا مما قاله السيد محمد احمد الغسيري ، عضو جبهة التحرير الوطي الجزائرية في تقديمه : « هناك كتب كثيرة صدرت مؤخرا باللغات المختلفة عن الجزائر العربية .. ولكنها في مجموعها تبحث موضوع الجزائر وقضيتها بسطحية بادية ، فهي اما ان تكون تستقي معلوماتها من المصادر الفرنسية ... واما ان تكون تلك المصادر عربية الفها مؤلفون عرب ... يستقون احيانا معلومات عابرة ان لم تكن من مصادر فرنسية اصلا فهي مما ترجم الى الصحف والمجلات بكثير من التصرف . اما هذه المرة فان مؤلفنا الشاب الاستاذ احمد الخطيب هو باحث من الجزائر درس في لبنان ، ودرس بالجزائر ، وعاش حاضرها وتعرف الى كثير من معالم حضارتها وحياتها العامة ، باحث سيتحف قراء العربية لاول مرة بدراسة قيمة مفصلة عن القضية الجزائرية .... »

والواقع أن الكتاب يمثل دراسة علمية مبوبة ومفصلة لتاريخ الجزائر وقضيتها وملابساتها . ولست اودهنا الذهاب بذهن القارىء الى استعراض ابواب الكتاب وفصوله واحدا واحدا للتحليل والمناقشة ، لاني افضل ان لا استأثر من دون القاريء بهذه المهمة بالنسبة الى هذا الكتاب . وانما احب ان اذكر انطباعاتي الرئيسية عن هذا الكتاب ، وهي انطباعات ، على ما اعتقد ، ذات صلة متينة بمعنى النضال الذي تخوضه القومية العربية اليوم ، وبروح هذا النضال .

ان اول فكرة يخدمها هذا الكتاب تبيانه لحقيقة الكيان الوطني للجزائر . فالمؤلف قد افرد فصلا خاصا بعنوان « الدولة الجزائرية قبل الاحتلال » ، شرح فيه حقيقةالدولة الجزائرية استنادا الى ما حددته القوانين الدولية والعرف الدولي من توفر العناصر الاساسية التالية : الوطن القومي ، الحكومة ، النظام الاداري ، النظام الدبلوماسي والدفاع الوطني . ويتضح من هذا الفصل ما كان للجزائر من شخصية دولية مستقلة ، اذ كان لها حكومة وطنية يشرف عليها ملك يسمى الداي ، وتتكون من خمس وزارات : الداخلية والمالية ، الخارجية والبحرية ، الحربية ، الاملاك الاميرية ثم الشرع والقضاء ، وكان لها نظام اداري يضاهي في ذلك الحين احسن انظمة ادارات دول اوروبا ، كما كان لها نظام دبلوماسي ، بحيث ان كثيرا من الدول اعترفت بالدولة الجزائرية ودرجت على استرضائها على الدوام رغبة في الحصول على حماية سفنها بواسطة اسطولها الذي كان مسيطرا على الجزء الغربي من البحر المتوسط ، ومن هذه الدول : الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا والمانيا وفرنسا وروما واسبانيا وهولندا والنمساوالبرتغال، وقد عقدت معها بعض هذه الدول مثل الولايات المتحدة الامريكية وفرنسا محالفات سلم وصداقة . وهذا مما

يدحض افتراءات الاستعمار الفرنسي حول عدم اعتبار الجزائر دولة وطنية قبل الاحتلال ، بل « ملكا » من « املاك » الامبراطورية العثمانية .

والفكرة الثانية البارزة في هذاالكتاب ، هي ايضاح الهدف الحقيقي الذي يسعى اليه الاستعمار في الجزائر . فعند قراءة الوقائع التي رافقت الاحتلال وما تبعه منها حتى اليوم ، وعند مطالعة التصريحات والرسائل الرسمية الفرنسية حول الوضع في الجزائر ، يلمس المرء لمسا يهز مشاعره الانسانية حقيقة حرب الابادة التي تخوضها فرنسا ضد الشعب العربي في الجزائر . واكتفي هنا بما جاء في تقرير الدوق « دوكلير مونتانيار » وزير حربية فرنسا أبان حملة الاحتلال الى مليكه شارل العاشر لتعليل احتلال الجزائر : « كان احتلالنا للجزائر اخذا بثأر الاهانة التي لحقت بممثل فرنسا ، وارضاء للمسيحيين وذلك بابادة المسلمين اشد أعدائهم طغيانا ... ولسنا بحاجة الى اقتناع جديد بأنه لا سبيل الى استقرار الامن في الجزائر الا بابادة اهلها عن بكرة ابيهم » .

ان من يقرأ تاريخ حرب الابادة هذه في كتاب « الثورة الجزائرية » ، يستطيع ان يتمثل بوضوح حقيقة نوع الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، ومدى اختلافه عن سائر انواع الاستعمار .

اما الانطباع الثالث الذي يحدثه هذا الكتاب ، فهو هذه الصورة الواضحة ، التي قد لا نجدها في الصحف القومية وانباء الاثير ، لحقيقة كفاح الشعب الجزائري . فمنذ ان وطىء الاستعمار الفرنسي ارض الجزائر في ليل الرابع عشر من شهر حزيران سنة ١٨٣٠ ، ونضال الشعب الجزائري محتدم لا يلين ، ولقد خان « الداي » شعبه فقبل بتسليم العاصمة ، ولكن الشعب رفض الاستسلام ورفع راية الجهاد والحق بالغزاة الهزائم الكثيرة ، وما زال الى اليوم يقوم بواجبه القومي المقدس ببطولة نادرة . ولم يرتكز نضال الشعب الجزائري على عمليات الجيوش الحربية فقط ، وانما اقترن النشاط العسكري بمعاونة فرق المقاومة الشعبية المنظمة . فنحن هنا بازاء حركة كفاح شعبي شامل منظم نراه لاول مرة في تاريخ العرب .

تلك هي انطباعاتي الرئيسية عن هذا الكتاب القيم ، واعتقد أن فيها الكفاية التي تخولني اعتباره فريدا في نوعه ، والدعوة بالحاح الى مطالعته .

محمد وهبي

شمروخ

تاليف : الاستاذ محمود تيمور

القاص مؤرخ على طريقته والقصة نوع من التاريخ . واذا كان الاديب ابن عصره تتمثل في كتاباته الافكار الشائعة في عهده والحياة والاجتماعية والسياسية والادبية فان القاص بنوع خاص هو الذي يمثل ذلك خير تمثيل لانه يستوحي قصصه من واقع الحياة وحوادثها وملابساتها كما يخلق شخصياته على شكل الاشخاص الذين يختلط بهم او يراهم ويشاهد اعمالهم ويبحث خصائصهم .

وهكذا فان عملية الخلق عند القاص خاضعة دائما لما يكتنزه في نفسه من مشاهد وصور ومن تأثره بحوادث شهدها وناس عرفهم .

والقصة من هذه الناحية وثيقة تاريخية عن حياة العصر الذي كتبت فيه . ومؤرخ الحياة الاجتماعية لا يستطيع ان يتجاهل مجموعة القصص التي كتبها كبار كتابنا وخاصة الاستاذ تيمور كما ان مؤرخ الحياة الاجتماعية عهد روسيا القيصرية مضطر الى الاستعانة بقصص « دوستويفسكي » و « تورجنيف » و « تولستوى » ، وفي فرنسا بقصص «بول بورجيه » .

وبعض كبار القاصين يتعمدون معالجة موضوعات الحياة السائرة والافكار الشائعة في قصصهم . هذا « بول بورجيه » الذي ذكرناه فانه لم يكد يتحدث الناس في فرنسا عن سن قانون للطلاق وصدوره في اوائل هذا القرن حتى وضع قصة بعنوان «طلاق» وقد جمع في قصة « المريد » جميع الاراء الفلسفية التى كانت شائعة في عصره في شخصية الفيلسوف « ادريان سبكت » ووصف اثرها في القصة . ولم تكد تقوم الحرب العالمية الاولى حتى كتب قصة بعنوان « معنى الموت » ثم اردفها بقصة عنوانها « نيميزيس » الهة الانتقام ، وبعد الحرب كتب اكثر من قصة في وصف تطور الحياة الاجتماعية بعد الكارثة الاولى التي المت بالانسانية .

وكذلك كان يفعل « موريس باريس » في محيط اضيق ، عندما كانت فرنسا تطالب بعودة مقاطعتي الالزاس واللورين اليها قبل الحرب العالمية الاولى فكان في قصة « التل الملهم » وغيرها يتعمد اذكاء روح المطالبة في نفوس الفرنسيين .

وكذلك عمد تولستوى الى تصوير مشاهد الحياة في قصته « الحرب والسلم » كما فعل « تور جنيف » في قصصه حين وصف الاثرياء الروس ومعاملتهم لخدمهم وفلاحيهم .

ولعلى اطلت في قضية ادبية معروفة متواضع عليها لا تحتاج الى جميع هذه الشواهد لاقول ان الاستاذ محمود تيمور لم يخرج عن تلك الخطة التي رسمها كبار القاصين وهو واحد منهم ـ حين كتب قصة «شمروخ(١)» وعالج فيها مشكلة من اهم المشاكل التي يتعرض لها الشرق الاوسط . وهي مشكلة البترول واستثماره بواسطة الدول الاجنبية وحرص هذه الدول على الاحتفاظ بامتياز هذا الاستثمار وتاثير ذلك في الحياة السياسية والاجتماعية في المناطق التي نبع منها .

و « شمروخ » من بعض اسماء الجن وقد كنى به الاستاذ تيمور عن البترول لانه يفعل في نفوس سكان المناطق فعل الجن والشياطين اذ يفرق من ناحية بين هؤلاء السكان فيود البعض لو انه لم يوجد ويعمل البعض الاخر على الاستفادة منه الى ابعد حد . وهو يقلب الاوضاع والتقاليد الاجتماعية ، ولعله يوسوس كذلك في بعض النفوس يفتح

(١) في ١٨٨ صفحة من القطع الكبير التزمت طبعها « دار الهلال وتوزيعها « مؤسسة المطبوعات الحديثة »

امامها من سعة للبذل والاسراف .

وقد عالج الاستاذ تيمور موضوعه على طريقته الهادئة في التفصيل والتحليل واسلوبه البارع في الوصف بحيث قدم صورة كاملة في عبارات قليلة تفتح امام المخيلة والعقل مجالا واسعا للتأمل والتدبير .

وامارة « زيتستان » التي تقع فيها حوادث القصة جزيرة عربية تخيلها القاص على نوع تلك الامارات الواقعة على الخليج الفارسي حيث قلب البترول نظام الحياة وأثار مشاكل اجتماعية وسياسية. وقد صور فيها جميع انواع النضال التي يستحدثها مثل هذه الانقلابات : نضال حول التقاليد المرعية ، ففريق يقول بالاخذ بها وفريق يقول بالتطور لمماشاة المدنية الحديثة ، ونضال حول نظام الدولة والحكم الديمقراطي ومشاكل العمال ، ونضال حول الطبقات او هو النضال الاجتماعي ، ونضال حول « شمروخ » او البترول هل تدمر اباره وتطمس اثارها حتى لايشيع استثمارها وما يدره من مال يشيع مختلف انواع الفساد الاخلاق والحكم والسياسة وحتى لا يفرى الاجنبي المستعمر على التحكم في مصير الجزيرة .

وقد افاد الاستاذ تيمور من جميع هذا كما افاد من الصراع القائم بين الاستعمار والاستقلال ومن الافكار الحديثة في التعاون بين الدول والخلافات حول نظام الحكم وحول القديم والحديث ومثله اتم تمثيل في قصته .

ولا عجب في ذلك فان الاستاذ تيمور يرى ان « النضال آية الحيوية واختلاف وجهات النظر تطلع الى تمحيص الحقائق وانالحقائق لا تثبت بل تتغير مع الزمن ، ولا تجمد بل تتاثر بملابسات العيش ، ومن ثم يتواصل النضال واختلاف وجهات النظر ما تواصلت الايام » وهي « طبيعة الدنيا وسنة الخلق »

وهكذا نجد في الجزيرة عاصمتين ونجد فيها حزبين فالعاصمة القديمة « الظاهرية » تقع في اواسط الجزيرة والعاصمة الجديدة « المادحية » تقع على شاطىء البحر وقد نقل الشيخ مادح الارض حاكم الجزيرة عاصمة ملكه الى هذا الميناء بعد ظهور البترول في الجزيرة وانشاء حركة لاستثماره واخذ يمالىء القائمين بامر الشركة وينفذلهم جميع رغباتهم فين حين قبع الشيخ نعسان المبارك في الظاهرية يندد باعمال الحاكم ويعارض اخذه بجميع مظاهر المدنية الحديثة وتفانيه في خدمة اصحاب الشركة . وهكذا ينشأ حزبان احدهما محافظ بزعامة الشيخ نعسان ويسمى حزب القرية الطاهرة والاخر مجدد برئاسة الشيخ غانم الدخيل رئيس الوزارة باسم حزب الرشاد الحر . والاول يعارض التعاون مع شركة الزيت وينقم على « شمروخ » وما جلبه الى الجزيرة من فساد والاخر يتفانى في خدمة الشركة ويسرف اعضاؤه في الانغماس في صنوف الترف الغربي .

ويظهر همام ابن الحاكم وولى عهده وكان قد نشىء تنشئة عصرية وسافر الى مصر واوروبا ودرس حضارتها ونظمها ، وعاد الى زيتستانمشبعا بروح الاصلاح الذي يجب ادخاله لرفع مستوى معيشة الشعب حتى يقضي على روح التذمر من جانبه والحد من بذخ الوزراء ومن اليهم فيعمل على تأسيس حزب جديد يسميه حزب الشعب ويضم المعتدلين من اولئك الذين لم ينساقوا مع التساهل او التفريط ولم يستنيموا للرجعية او التحفظ ويشرع يعمل مع سكرتيره سيد منصور المصري .

وكان ضروريا ان يتكتل العمال الذين يعملون لدى شركة الزيت وان تكون لهم مطالب ومطامح وان ينزعمهم شهاب ، وهو شاب جرىء ناهض يتحدث باسمهم .

وقد مثل الاستاذ تيمور حزبي القرية الطاهرة والرشاد الحر بفتاتين احداهما اشراق التي تعيش في الظاهرية ، العاصمة القديمة في كنف الشيخ نعسان مبارك وتمثل حزب الرجعية والثانية مسز فلورين ابنة مدير الشركة التي تعيش في المادحية العاصمة وتمثل التقدم والاخذ بحياة الغرب باوسع معانيها .

في هذا الجو تتطور حوادث قصة «شمروخ» يدفعها الاستاذ تيمور وفقا لتطور العصر ومقتضياته . وهو يقول ان الحياة السوية هي التي تقوم على النضال الاجتماعي والتطلع الى غد اسعد ، وعالم امثل ، ولكن في ترابط سلمي ، وفي جو من المصالحة ، وفي روح التعاون بين فرد وفرد ، وطبقة وطبقة ، ومذهب ومذهب وامة وامة ، وذلك في حرم الحرية ، وفي حدود الاعتدال ، وتحت راية اعلاء الخير الانساني العام على منافع العناصر والاحزاب والاشخاص .. والبقاء للاصلح »

وبهذه الروح المسالمة الهادئة يدفع الاستاذ تيمور حوادث القصة فتسير هادئة رتيبة لا يعتورها عنف ولا يتدخلها ثورات ، بل نجد الحجة تقرع بالحجة والدليل ينساب وراء دليل اخر في اتزان راى واخذ بالعقل والمنطق . حتى الثورة التي ادت الى خلع حاكم الجزيرة والافراج عن همام بعد ان اعتقل لارائه فقد استطاع قادتها السيطرة عليها والاكتفاء بالزحف على المادحية العاصمة الجديدة ومحاصرتها ..

وقد اجاد تيمور تمثيل الصراع بين الحزبين الرجعي والتقدمي في الفتاتين اشراق « ومسز فلورين » وكل واحدة منهما تحاول بوسائلها جذب همام ـ وهو بطل القصة ـ اليها . الاولى في خفر وحياء وترفع والثانية في جراة واقدام وتبذل .

ولكن الاستاذ تيمور يؤمن بالتطور ويرى ان الجمود يؤذي الشعوب ويجعلها فريسة للفقر والجهل والمرض لذلك نجد اشراق تتطور بارشاد همام ، ودفعه لها ، ونجد الشيخ نعسان يرضى عن شمروخ حين يتولى امارة الجزيرة ولكن على ان ينتفع به افراد الشعب لا طبقة معينة من الناس ، يولى هماما رئاسة الوزارة لكي ينفذ مشاريعه الاصلاحية

وكان الطبيعي ان تندمر« مسز فلورين » امام « اشراق.» وان تنتصر «اشراق» عليها بالاحتفاظ بقلب همام ..

ويجب ان تطالع قصة « شمروخ » لكي ترى كيف انها صورة مصغرة لمشاكل العصر الحديث : صراع الطبقات ، ومحاولة رفع مستوى الشعوب ، والبحث عن خير انظمة الحكم ، وتطور المجتمع نحو مستقبل سعيد . وقد اكتفينا بالاشارة الى عناصرها دون تلخيص حوادثها مخافة التقصير في استيعابها .

وقد جاءت هذه القصة تحمل طابع الاستاذ محمود تيمور في تفكيره الهادىء الرصين ونزعته الى الخير وروحه التفاؤلية وفنه القوي المتين وبراعته في بناء القصة وتركيز عقدتها ووحدتها وتطور حوادثها .

والاستاذ تيمور في « شمروخ » قاص ومؤرخ معا .

صديق شيبوب

بداية الربيع

رواية للكاتب السوداني ابو بكر خالد

الناشر ـ دار الفكر ، القاهرة

*

لا اريد ان اجعل نقطة الانطلاق في نقدي لقصة « بداية الربيع » للكاتب ابو بكر خالد انها اول قصة طويلة لكاتب سوداني ، فاقف عند جذور القصة السودانية من يوم كانت اسطورة او حكاية او مثلا عميق المغزى. وان كنت آمل ان تمنحني الايام فرصة لهذه الدراسة فهي تتيح لنا مزيدا من الفهم لهذا الشعب الشقيق الذي تربطنا به روابط لا تنفصم . وفهم هذه الاشياء هو المفتاح او كلمة السر للوصول الى نفسية هذا الشعب الذي تأصلت فيه هذه الاشياء كما تأصلت في ابناء اقليمنا المصري النكتة السريعة.

ولا اريد ان ابدأ عن القصة السودانية كوجه من اوجه الادب العربي فان هذا البدء سيصل بي الى دراسات في القومية والنزعة الافريقية وربما التاريخ الاسلامي وقد يتفرع بي الطريق الى انفتاح القومية والى اللقاء بين الشعب العربي في الصراع ضد الاستعمار وفي الحياد الايجابي وكل القيم التي ندافع عنها في اصرار .

ولكني اقف من القصة عند سؤال قديم « هل هناك علاقة بين التقدم السياسي والوطني وبين عادات الناس وسلوكهم واساليب معاشهم ؟»

وفي السودان يعيش جزء حبيب من الشعب العربي في صراع رهيب ضد الاستعمار والحكومة الرجعية وفساد جهاز الحكم وسيطرة العملاء (١) ؟ فما اثر هذا الصراع وما مداه ؟ وهل يمكن ان تنعكس الاوضاع السياسية والصراعات الوطنية في الاسرة العادية ؟

ان قصة « بداية الربيع » التي صدرت عن دار الفكر ، تجيب على هذا السؤال اجابة تضيف الى الخدمات التي تقدمها الاداب للعلوم خدمة جديدة موفقة فهي تنقل اليك الحياة في السودان بكل ما يجيش فيها من اصداء وانفعالات ، وتكسبك معايشة حقيقية وتامة في الارض السمراء ذات البيوت الصغيرة التي تبدو على جنبات الطرق ملتصقة في حنو وتعاطف . وتقف بك في امدرمان حيث يمتد شارع كرزي مبتدئا من المحطة الوسط حتى ودنوباوي ، وفي طرفه القريب من السوق نجد منزل الحاج مصطفى عضو حزب الامة الذي يحتضن كل الافكار الاستعمارية ويقف ضد قوى الشعب . ولكن الحاج مصطفى ليس رجلا شريرا قاسي القلب حديدي الحواس ، بل ان نظرته الطفلية البريئة ووجهه الطيب الذي يشرق بالابتسامة تحت عمامته البيضاء الكبيرة التي تفارقه ، وكل تصرفاته تشعرك بالتناقض بين هذا الشيخ وبين حزبه الذي يدبر المؤامرات ويشيع الفوضى والمجاعة في ارض وطنه ، ترى ما الذي يربطه بالحزب الذي يتنافى مع طبيعته ؟

انه قد اكتسب مع الزمن عداوات تقليدية مع كل جيرانه المرتبطين بالاحزاب الوطنية وليس من الممكن ان نتصور امكانية مصافحته لهم يوما ؟ هل هذه هي المشكلة التي تبقيه في حزبه ؟ لا ، فهو لم يحس بهذه المشكلة لانه فعلا لا يريد ان يترك حزب الامة .

وزوجته الثانية نفيسة هي ام اولاده ، فان الزوجة الاولى لم تترك له الا مبارك اكبر ابنائه والذي تخرج من المدرسة الابتدائية وعشق السهر بين النساء الحبشيات في بيوت الدعارة في الايام التي يسافر فيها والده من اجل تجارته . ومبارك ورث عن الزوجة الاولى هذا الوجه القبيح الذي لم تخلق بعد الفتاة التي تطيقه ، فلا طريق له الا ان يدفع من ماله في تلك الدور القذرة ثمن لذاته التي لا يفكر في غيرها .

ونفيسة الزوجة تفهم شيئا واحدا في حياتها ان تطيع زوجها ولا تناقشه ، انها مثل هانز مولر الجندي الذي قال عنه ناظم حكمت انه يخاف من ثلاثة اشياء « الفوهرر ، الفوهرر ، الفوهرر » . فاذا ما عرض عليها مشكلة فهي تعرف واجبها الوحيد ان توافق على ما يقال ، وهي وان وافقت على ان تتعلم ابنتها ، لا تطيق ان تراها تناقش حتى اخاها الصغير . وهي لذلك تفرض على الابنة رقابة حديدية فلا تجعلها تترك البيت الا الى المدرسة ثم لا سبيل الى الخروج . وطالما انها لم تبد رأيها حين تزوجت وانما سيقت الى الحاج مصطفى ورضيت به فهل تتصور ان تختار ابنتها او تبدي رأيها فيه ؟

ونفيسة تحس اليوم انها غريبة عن بيتها ، فابنتها زينب دائمة الخلاف معها ، وقد يصل الخلاف احيانا الى دور الشجار . وهي تجد لذة كبيرة في حديث ام ابراهيم الحلبية التي تحدثها عما يخبئه الغيب لها من خلال الودع والاصداف التي تلقيها امامها وهي تتمتم . وبخيته الخادمة تمتعها هي الاخرى باساطير الجن وكرامات الشيوخ والاولياء. أما ابنتها زينب .. آه.. لماذا يصرون على تعليم البنات ؟ ها هم قد افسدوا عليها ابنتها . ولكن امومتها تنتصر على الخلاف والشجار بينها وبين ابنتها فاذا هي تحدث نفسها « ماذا كان يحدث لو دخلت انت المدرسة يا نفيسة ، هل كنت تقرأين ايضا وتكتبين . هل كنت تتزوجين ابا صديق هذا الرجل الذي لا يسمح لك بالخروج من المنزل الا في المناسبات ؟ بنات هذا الزمن يا نفيسة يجلبن العرسان بتعليمهن والواحدة منهن في الغالب تجد شابا صغيرا يقارب سنها تعيش معه مثل الافرنج . ابنتي زينب صغيرة وجميلة ومتعلمة .ترى اي صنف سيكون زوجها ؟ في صغري تزوجت رجلا يكبرني بعدة اعوام وكان جافا غليظا لم يشعرني ابدا بانني زوجة يحبها ويخلص لها . كثيرا ما فكر في الزواج وكان تواجهني بذلك . ظروفه المالية فقط هي التي منعته من ذلك .

وتعود البيئة مرة اخرى لتقيد احلامها فاذا هي تلعن التعليم وبنات هذه الايام ، فهن لا يستحين من نشر صورهن في الصحف وهن ضامرات الاجسام من السهر باهتات العيون من كثرة القراءة .

وصديق ابن الحاج مصطفى طالب بالسنة الثالثة بمدرسة وادي سيدنا الثانوية يتجه نحو سن الاحلام المراهقة ، وهو لم يعد يطيق وقاحة اخيه الاكبر ومعاملته له على انه طفل صغير . وحين ضربه ابوه لانه لم يقبل اهانة اخيه الاكبر تسمر في مكانه ولم يبك وانصرف الى بيته تاركا متجر ابيه غاضبا حزينا لهؤلاء الذين لا يقدرون ثقافته ورجولته وعضويته للجمعية الدينية في المدرسة ! وقدرته الخطابية التي تأخذ بمجامع القلوب . الويل له اذا علم اعداؤه الحزبيون في المدرسة انه ما زال يضرب في البيت كالاطفال . وحبيبته عزة التي لم يعبر لها لحظة واحدة عن عواطفه والتي لا تعرف عن حبه شيئا ، ماذا ترى تفعل لو علمت انه ما زال يضرب في البيت؟ ولكن ثورة صديق لا تستمر طويلا فما اسرع ما يدخل في عالم العادة السرية التي ترخي اعصابه المتوترة ثم يتسلل

---

(١) وصلنا هذا المقال قبيل الانقلاب السوداني الاخير .« الآداب»

الى المطبخ والكل نيام لياكل وهو الذي اعلن صيامه احتجاجا وغضبا .

ومحمد صديق فتانا صديق: انه ابن عضو بارز في الحزب الوطني الاتحادي وهذه العضوية تكسبه عداوة تقليدية لوالد صديق. محمد هذا يشتغل بالسياسة ويدافع عن القيم الوطنية ضد الاستعمار ومشاريعه وضد حكومته الرجعية . ويقبض عليه وهو يلقي محاضرة ويسجن مرات ويفصل من عمله المرة تلو المرة لاشتغاله بالسياسة . وها هو يبيع جريدة الميدان في الطرقات . فاذا ما سأله صديق عن مستقبله اجابه « ان مستقبلي مضمون لانني اصنعه بيدي » ولا يفهم صديق شيئا ويقول « اخاف ان اراك مشردا » فيجيب محمد « ان شعبنا كله مشرد »

وعزة اخت محمد تجد فرصا للتنفس الصحي اكثر من زينب اخت صديق التي تحاط من اعلى باب قاس مغلق النفس رجعي التفكير ومن الجانبين بمبارك الجلف الذي لا يعترف في البيت باحد غير نفسه ويؤكد سيادته ، وبصديق الذي لا يقرأ الصحف ويخجل من دخول السينما ويهرب من سماع المحاضرات ويجعل من اخته مركزا لكل اسقاطاته النفسية واستعراضا لبطولته وحزمه . فان لجأت زينب الى امها لم تجد فيها الا راسا خربا تعشعش فيه الاساطير وعناكب الاسياد وسيادة الاولياء.

ولنقدم قطاعا من حياة عزة المختلفة تماما ، نغوص في افكار صديق حين نراه يفكر فيها « ولكن عزة تعيش في منزل غريب . ان والدها عضو متطرف في الحزب الوطني الاتحادي . وشقيقها محمد يملأ المنزل بالكتب التي اغرم بها الشبان في هذه الايام . الكتب السياسية . بل ان الغريب في الموضوع حقا ان اخاها الصغير يوسف بدأ يعكس الاشياء التي تدور في منزلهم . انه يعرف الوطني الاتحادي ويحب الجبهة ويكره حزب الامة والامريكان كما قال . عزة تعيش في هذا البيت العجيب. لا شك انها ايضا تعتقد انني رجعي . فهي تذهب للاتحاد النسائي وليس بغريب ان اراها يوما تكتب في الصحف وتلقي الاحاديث في ندوات الاتحاد النسائي . كيف يكون موقفي لو حدث هذا وهو ليس بمستبعد على عزة شقيقة محمد »

وتضيق الحلقة على زينب اكثر فاكثر حين يصر والدها على تزويجها من رجل لا تحبه . ولكن اصرار الوالد ليس شرا كله بل ان خيره اكثر من شره فقد كان اكبر ضربة تتناثر تحت وقعها الافكار الجامدة التي تعيش في راس اخيها صديق ، فها هو يفكر ويحدث نفسه في حيرته « ترى كيف تقابل زينب هذا النبأ ؟ هل تتزوج رجلا قصيرا ممتلئا متساوي الطول والعرض . يتحرك في الشارع كانه يتدحرج كالكرة . الانه يملك الثمن؟ هل اصبحت اختي سلعة ؟ »

وصديق لم يكن مخطئا فقد احبت اخته زينب كاعمق ما يكون الحب. ولكن الحب في مجتمعاتنا مثل نهر النيل التقاليد كما يحجب الطمي قاع النهر مهما بعد .

وتتراكم مساوىء حزب الامة بارتباطه المتزايد مع الاستعمار ضد رغبات الشعب . ويرى الحاج مصطفى هذه التراكمات كما يرى قطرات المطر وهي تتحول الى سيول جارفة تملأ الطرقات وتعمق الاخوار والاخاديد . ولكن كل اصدقائه من حزب الامة وكل خصومه من الاحزاب الاخرى فكيف يترك الاصدقاء الى الخصوم ؟ الا يجوز ان يتركه الاصدقاء ويشمت به الخصوم ؟ « وهكذا ظل في الايام الاخيرة ينتمي لحزب الامة . رغم انه في داخله غير مقتنع ... »

ولكن ترك حزب الامة لم يشمت فيه احدا . انه بمنزله يستقبل الان والد محمد بعد ان استقبل السجن ابنيهما . ويسمعه يقول وهو يحرك عمامته في غبطة « اعتقد ان القبض على محمد كان نتيجة لملازمته لابني صديق . لان حزب الامة اراد ان ينتقم مني ، فلفقوا له هذه التهمة ». وهو يسمع من والد محمد حديثا عجيبا « الحقيقة يا حاج مصطفى اني كنت اعتقد ان الاولاد بطيشهم يتعرضون للقبض والسجن ولكني الان ادركت ان الحكومة هي التي تفعل ذلك نكاية بهم بلا مبررات . تصور يا حاج مصطفى ان محمدا وصديقا كانا يحملان ورقة يطلبان التوقيع عليها والورقة مكتوب فيها رجاء بوقف التجارب الذرية ؟ وكل الناس في السوق وقعوا عليها ، وانا نفسي وقعت عليها . لا ادري لماذا يقبض عليهم ويحقق معهم البوليس ؟ »

وتمر لحظات حلوة وقاسية في نفس الوقت بين الوالدين . لحظة فيها فرحة اللقاء والم فقد الابناء. وتاتي الاخبار ان محمدا وصديقا سيطلق سراحهما بعد ساعتين . ويدخل محمد الى بيته ويطمئن امه بان البوليس قد اشتبه في اشياء لم يجد لها نصيبا من الصحة . وعندئذ اطلق سراحهما معتذرا .

ويدخل صديق البيت خائفا منتظرا ثورة والده ولكن اشياء كثيرة قد تغيرت الان تماما . ان الوالد يستقبله مبتسما . انه يرى شيئا لا يفهمه لانه لم يعش في اعماق ابيه ليرى التراكمات الكمية كيف تنفلق عن شيء جديد تماما .

وتاتي اللحظة التي يعود فيها صديق الى مدرسته بوادي سيدنا بعد اجازته . انه اصبح شخصا جديدا فهو لا يختلس النظر الى عزة في غفلة من امها . كيف اكتسب كل هذه الشخصية ، وهو الذي كان يضطرب ويتلعثم عند رؤيتها ؟ من اين تدفق فيه كل هذا النشاط وهذه الحيوية ؟ . ويقف صديقا مستاذنا وياخذ حقيبته ويمسك يد الوالدة ويهزها في لطف مودعا . وياخذ يد عزة ويهزها ويضغط عليها بعض الشيء وكانه يعاهدها بذلك على شيء. ويخرج

وزينب خطبت الى محمد بعد ان استطاعت ان تحول والدها عن اصراره على تزويجها من ذلك الذي اراد ان يشتريها بماله وتجارته وجاهه .

ان القصة تنمو مع نمو الوعي الشعبي في السودان ، والوعي السياسي ليس شيئا معزولا عن كل جوانب الحياة . انه النار التي تحرق كل عفن المجتمع والافلال . ان الانتصار السياسي والوطني ينعكس في سلوك الناس ومعاشهم ، انه ينقي الشباب من العادة والشذوذ والوهم ويحطم السدود بين قوى الشعب .

كل خطوة الى الامام في طريق انتصار الشعب هي جسر جديد نحو الشرف والفضيلة .

فهل اجابت القصة على السؤال القديم ؟. ان « نعم » تسبق واجبي في ان اترك الاجابة للقاريء الكريم .

القاهرة — ابراهيم شعراوي